الفصل السادس

في البحث عن أندلس جديدة : جاك بيرك والعرب

عبّر جاك بيرك Jacques Berque مرة أخرى في محاضرته الوداعية في معهد فرنسا،[1] وبعبارات شخصية ومؤثرة، عن الأفكار التي اهتدى بها كمعلّم وكاتب، وعن الإيمان الذي عاش من خلاله. وكان في قلب اهتمامه مشكلة الانسلاخ والاغتراب؛ أي كيف يمكن للرجال والنساء أن يستعيدوا عالَماً أصبح غريباً عنهم، وأن يفعلوا ذلك بدون أن يفقدوا أصالتهم ؟ كيف يمكنهم أن يتجنبوا الخطرين، وهما إعادة التأكيد الراكد لهوية موروثة من الماضي، وحداثة عالمية ليس لها معالم؟ ويعتقد أن هوية العرب كشعب مختلف لها مصدران، هما الشعر العربي والقرآن. كما قاده نشاطه الفكري في السنوات الأخيرة، إلى تأمل عميق في معناهما وأهميتهما؛ ونتج عن ذلك كتابه الجدير بالاهتمام بعنوان "التعبير الثقافي في المجتمع العربي اليوم"[2] وترجمته لقصائد من الشعر الغنائي في الجاهلية.[3] ولا يزال عليه أن يعطينا أفكاره عن القرآن ومعانيه بالنسبة للعالم الحديث؛ وعلى الرغم من المثال الذي قدّمه لنا طالباه السابقان علي شريعتي وحسن حنفي، فإنّه يعترف بوجود قلق معيّن تجاه الطريقة التي يمكن من خلالها لوجهة النظر الدفاعية تجاه القرآن بين المفسّرين أن تحول دون الإبداع. يُنهي محاضرته بتأكيد على الإيمان، ليس فقط بالعرب ولكن بالكيان الأكبر الذي يشكّلون جزءاً منه، وهو عالم حوض المتوسط بأكمله، أي الشمال اللاتيني والجنوب العربي على حد سواء. ويعتقد أنّ إحياء "مناظره الموروثة"، أي خلق "أندلسيات جديدة"، هو أمر ممكن وضروري.

وإذا ما نظرنا من هنا إلى محاضرته الافتتاحية، التي ألقاها قبل خمسة وعشرين عاماً، فإننا نحصل على مفهوم عن ثباته تجاه مهمّة ما.[٤] تهتم المحاضرة، التي ألقاها في ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٥٦، عندما كان من النادر أن يتوقف دويّ المدافع على ضفتي قناة العرب، ولا يزال يُسمع دويّها في الجزائر، بموضوع حسّاس، وهو كيف يمكن للمرء أن يعرف "الآخر"، كيف يمكن للأوروبيين أن يفهموا الإسلام؟ وكان يتحدث من قلب التقليد الاستشراقي الغربي ويقول بأنّ الدراسات الإسلامية لم تعد كافية وفق الطريقة التي كانت تتناول بها في السابق؛ إذ يجب على العالِم الغربي، من الآن فصاعداً، أن يعمل بالتعاون مع هؤلاء الذين يعرفون مجتمعاتهم وثقافاتهم من الداخل. ويجب عليه أن يتحوّل من الماضي إلى الحاضر؛ ويجب أن ينظر في الحاضر من تحت سطح الأحداث السياسية والاقتصادية وينفذوا إلى أعماق الحركات القريبة جداً لقلوب الأفراد، ويلتفتوا إلى ذلك الإحباط والقلق الذي يساور هؤلاء الذين لم يعودوا يملكون العالم الذي هم مجبرون على العيش فيه، والذي يبدو أنّ إعادة التأكيد على الإسلام يقدّم له ترياقاً. كان هناك عدد قليل من المراقبين الغربيين في ذلك الوقت يتنبأون بإحياء الهوية الإسلامية كما نعرفها اليوم، وكان القليلون منهم في فرنسا أو انكلترا يجرؤون على الاعتراف باعتقادهم، وذلك في نهاية عام ١٩٥٦، بأنّ العلاقات بين فرنسا والعرب سوف تبقى كما هي. إنّ بلاد المغرب العربي "لا تزال موضع كبريائنا ودموعنا"؛[٥] فاللغة الفرنسية" لا تزال بمثابة ـ وأجرؤ على الإعلان بذلك اليوم ـ الشخصية الهيلينية للشعوب العربية".[٦]

تنظر هاتان المحاضرتان، ذواتا الوجهين، كما هي حال كل مؤلفات بيرك، إلى الخلف وإلى الأمام، وكأنما تشاهدان الظلال التي ألقاها الماضي على الحاضر والمستقبل. فهما تظهران، بشكل واضح، الموضوع، والطريقة، ونوع مؤلفاته. وباستخدام تعريفه الخاص عن نفسه، فهو "عالِمٌ بعلم الإنسان التاريخي"، وموضوعه الرئيس هو الموضوع الكبير للتاريخ الحديث، والثورة العلمية والتقنية وآثارها على العالم الإنساني. وبداية من أوروبا الشمالية، كانت الثورة في مرحلتها الأولى ملكاً

للأمم الغربية العظمى عن طريق الاحتكار؛ إذ حصدوا أرباح التجارة والقوة العسكرية، كما فرضوا سماتهم الخاصة على البلدان التي حكموها وسيطروا عليها. ثم جاء عصر القومية، فاستعاد باقي شعوب العالم حقوقهم من الثورة واستعادوا، على الأقل، السمات الخارجية لهويتهم. أظهرت المشكلة الحقيقية نفسها مع الاستقلال، فكيف يمكن السيطرة على الثورة في عمقها والعمل بذلك، بينما يبقى المرء صادقاً مع نفسه. استأثرت النخبة الحاكمة لنفسها في المرحلة الأولى من الاستقلال، بثمرات النهضة الوطنية، وحاولت أن تفرض على شعوبها حركة حداثة غير متأصلة في التجربة الأكثر عمقاً للثقافة الموروثة. ومن شأن معارضة ذلك، والإلحاح على حاجة الشعب كله على المشاركة في الأعمال الجماعية، قد يأخذ بسهولة شكل إعادة التأكيد على التراث بطريقة تكبح التقدم. وفي نظر بيرك يوجد طريقان للخروج من هذا المأزق؛ وهما إسلام معاصر واشتراكية حقيقية. وعلى العرب أن يختاروا بأنفسهم، إذ لا يمكن لأحد أن يختار عنهم؛ ومن الأشياء الخفية التي كانت توجّه عمله، ذلك العمل لِـ تي. إي. لورنس، والذي يتلاعب بآمال الرجال الآخرين من أجل أهداف لا تعنيهم.

إذا عبّرنا عن الموضوع بهذا الشكل الواضح، فإننا نقدم بذلك نظرة مشوّهة لما نجده في كتب بيرك؛ فهي لا تحتوي على سلسلة من الأفكار المجردة التي تسير على خط مستقيم رفيع من العرض (التقديم)، بل هي حركة مستمرة تبدأ من سطح المجتمع إلى أعماق الأفكار التي تحركه وتفسّره، وبالعكس. إنّه يعبّر عن طريقته في أكثر كتبه التصاقاً بشخصيته وهو بعنوان "شبه الجزيرة العربية"، ويحتوي في جزء منه على سيرته الذاتية، والجزء الآخر تأملاته للعالم الإنساني، وذلك عن طريق حوار مع ميريز عكار MirÈse Akar، الذي يستحق الثناء لأنه أقنعه أن يبوح عن سريرة نفسه بهذه الطريقة، ولأنه عبّر عن تباريح ذاته بطريقة صادقة وسلسة:

عندما تتحدث إلى فرد ما، فإنك تحدّق قبل كل شيء في وجهه. فعندما أتحدث إلى شخص ما، فأنا لا أنظر إلى هيكله، ولا حتى إلى أفعاله، ولكن قبل كل شيء إلى تعابير وجهه، والأمر ذاته يحدث بالنسبة لدراسة المجتمعات. فأنا أعرف أن خلف تعبير الوجه يوجد ذلك الشيء الذي يحركه ويُبقيه، شيء حقيقي كالذي أدركه في البداية، وهو تبادل النظرات والنّفس بيننا... أفكر بالشيئين سوياً على أنهما يشكلاّن كائناً واحداً، أو ربما كائنين متبادلين، يتقدمان وينسحبان ويعودان إلى الالتحام مرة أخرى كالفرسان العرب في العهد الرومانسي. ويمكننا أن نطلق على هذا النوع من التأثير الذي يتركه فينا المواجهة، وهو الاسم الذي يطلقه مؤرّخو الفن على القوة الغريبة لتلك التماثيل القديمة التي تتابعك بأعينها وتفرض وجودها المفرط عليك. "الحضور": كلمة لا تزال أكثر فظاعة من كلمة "الغياب"، وهي مثلها تتعلق بتبادلنا بوصفنا كائنات حية ـ إنها عملية تبادل بحيث يعتبر الحب إحدى حالاتها الشديدة.[٧]

إنَّ هذا التناوب في النظرة بين ظاهر المجتمع وباطنه هو الذي يعطي كتب جاك بيرك الحيوية والتشويق. ولربما يكون أفضل ما يسطّره عندما يصف على نحو دقيق نظرة مجتمع معين وشكله، ففي كتابه عن العالِم المغربي اليوسي،[٨] وكذلك دراسته لقرية مصرية، بعنوان" التاريخ الاجتماعي لقرية مصرية في القرن العشرين"،[٩] يستخدم الملاحظة المباشرة، وقراءة لروايات وقصص حديثة لكي يرسم صورة للمجتمع وللقوى التي تبقيه وتغيّره. وفي كتابه الأكبر، بعنوان "مصر، الإمبريالية والثورة"،[١٠] تمتزج الحركات السياسية والاقتصادية معاً لاستحضار مشاهد وأصوات للمدينة وللريف. كما يصوّر على نحو بارع ودقيق الصعيد المصري، والدلتا، والساحات العامة، وصالونات الزمالك وجاردن سيتي، وربما يَزْورُّ عنه قليلاً الإنكليز والزوّار السمجين غير اللبقين من الشمال القوطي إلى منطقة البحر المتوسط المشرقة.

إنَّ كتابات بيرك مفعمة بالمشاهد والأصوات، والروائح والنكهات. لقد تشرّب العالم العربي بحواسه كلّها. فلا نجد أثراً للعالم التقليدي في كتبه، لكن نجد شخصاً يمشي في الأزقة الضيقة لمدينة فاس:

عيونه مُسدلة، ويتأبط سجادة صلاته تحت إبطه... تعبّر خطوته عن ازدراء لسفاسف العالم من حوله... إنحناءته الغامضة، وأعصابه كساكن قديم للمدينة، خطواته كأحد رجال الحاشية الكبار، تعلّقه بالمخمل المزيّن والجص المنحوت للبيوت تجعله البطل العقلاني لثقافة تعبّر عن نفسها بشكل جيد عن طريق المعرفة الواسعة للعالِم، أو اليد البارعة للحرفي، أو نضارة طعامها.[١١]

وهكذا نجده يسترجع صدى ذكريات طفولته التي قضاها في الجزائر، وذلك من خلال مشاهد وروائح معينة؛ من قبيل الضوء الساطع الباهر الذي كان يراه بعد الظهيرة، وروائح معاطف البرنس الملبدة بالشحوم، ورائحة التوابل. أما ذكرياته عن المغرب فيسترجعها من خلال الكتابة عن طبقها الملكي وشطائر الحمام المحشو باللوز؛ أي الباستيلا. وهكذا تصبح هذه الانطباعات الحسّية في عمله رموزاً للطبيعة الخاصة للعرب. ولم يكن يعاني من نقص السكينة التي عانى منها علماء كثيرون من الجيل الأقدم مع الحقيقة الإنسانية التي كانوا يدرسونها. ويعبّر عن ذلك ببساطة فيقول، " إنني أذهب إلى البلدان العربية لأنني أشعر بالسعادة هناك".

إن الانتقال السهل فيما بين ظاهر الأمر وباطنه أمر أكبر من أن يكون طريقة، إنه تعبير عن طريقة حياة. تحدّث بيرك في محاضرته الأخيرة عن حاجته في أن يدمج في عمله المفاهيم التي تعلّمها من العلوم الاجتماعية، ومراقبة تحركات حقيقية عنيفة، وذكريات وواجبات حياته الشخصية. فقد أمضى الشطر الأكبر من حياته في عالم منطقة المتوسط، وإنّ رؤية ذلك العالم المرتبط بالبحر منذ القدم "هي الشيء الأعمق بداخلي". تبدو مصالحته مع نفسه جليّة، على سبيل المثال، في كتابه عن "شمال أفريقيا الفرنسي" (المغرب بين حربين).[١٢] وعندما يسترجع جاك بيرك ذكرياته في العالم الذي قضى فيه شبابه، نجد أنه يتحسّر على أن شاطئي البحر القديم قد ابتعدا بعضهما عن بعض، وكيف أن الشعب المغربي قد أصبح - في نظر مستعمريه- غير حقيقي؛ فهو عندهم مصدر تهديد و"خطر وكمٌّ غير مؤكد، وشيء يمكن استغلاله". بالنسبة للمواطن الشمال أفريقي، فإن الفرنسي هو حقيقي في بلده، ولكن توجد وراءه صورة لفرنسا أخرى،

"تباين متفاقم باستمرار بين فرنسا التي كان يرغب فيها وفرنسا التي عرفها عن طريق التجربة". إنّه يسجّل في فقرات كهذه وبشكل ضمني خطواته الخاصة تجاه القبول بأنّ النظام الاستعماري كان محتوماً. إنّه لا يزعم أنّ هذه الحركة من فكره كانت أسرع أو أبسط مما كانت؛ وهو لم يقبل بضرورة القومية بشكل كامل، وذلك كخطوة أولية للتحرر الإنساني، حتى عاش في قرية مصرية في الخمسينيات من القرن العشرين.

وقد كتب عن مرحلتي طفولته وشبابه بعبارات مفعمة بالحياة، وعلى نحو أكثر وضوحاً في كتاب له بعنوان "شبه الجزيرة العربية". وفيها تتبيّن لنا صورة واضحة للطريقة التي تعلن بها طريقته عن نفسها؛ فهناك يقف والده في بداية الطريق، ويقول عن ذلك: "لقد ترسمت خطى والدي في كل حياتي". لقد كان والده أوغسطين بيرك شخصية استثنائية في جهوده، فقد كان مسؤولاً رفيعاً في الحكومة الجزائرية وكان كاتباً يتمتع بنفس القوة في استحضار الناس والأمكنة مثل ابنه، فإنّ تصويره لشخصية أحد أعيان الريف الجزائري في عصر آخر، تعبّر بشكل دقيق عن العلاقة الغامضة بين المستَعْمِر والمستَعْمَر:

> كان متوهجاً وطائشاً تحت كرامته الباردة، وذا طموح متقد يغلفه باللامبالاة، وكان ذا شهامة وفارساً حذراً في الوقت نفسه، وقد تقمص دور المتفاني الساذج والمخلص... وربط اهتماماته بهذه الطريقة مع قضيتنا، كما مزجها في السابق مع اهتمامات أعدائنا.(١٣)

كان أوغسطين بيرك يعيش حياة رغدة رفيعة المستوى؛ هو المستوى الذي كان يعيشه المسؤولون الذين كانوا يعملون في حقبة الخدمة الاستعمارية وهي في أوج ازدهارها. وكان هذا هو العالم الأخلاقي الذي ترعرع فيه ابنه جاك. وقد قضى بعضاً من سنين طفولته في فريندا Frenda؛ قريبة من المكان الذي كان العلامة ابن خلدون يخلو فيه إلى نفسه؛ ليتأمل ويقلّب في ذهنه التاريخ الطبيعي للسلالات الحاكمة. لذا فإنّ روح ابن خلدون هي روح أخرى تطارد فكره. كان من عادته في فريندا أن يجلس، وهو

صبي صغير، في زاوية قرب المدفأة، مراقباً أباه وهو يقيم العدل؛ وبقي لديه هذا الشعور بعلاقة سهلة ومفتوحة، قبل أن تكشف تناقضات الوجود الاستعماري عن نفسها فيما بعد.

يستعيد ذكريات على نفس الشاكلة من مرحلة مقتبل شبابه. فلم يكن سعيداً عندما كان طالباً في باريس، وكان يمقت جامعة السوربون في ذلك الوقت، لذا نجده قد عاد فجأة إلى الجزائر، حيث رتّب له والده قضاء بعض الأشهر مع إحدى قبائل الجنوب ليمارس ركوب الخيل، وتعلّم اللغة العربية، وللوقوف على طابع الحياة الأبوية القديمة. ومن ثمّ انخرط في الخدمة (العسكرية). ووجد نفسه وهو شاب يافع جداً مسؤولاً في الريف المغربي، يقضي بين الناس ويتخذ قرارات تخصّ أناساً ومجتمعات لم يكن يفهمها فهماً كاملاً. وفي كتابةٍ شخصية أخرى، بعنوان "مدخل إلى المكتب العربي"،[١٤] يصوّر بمحبة وسخرية التوازن الهش بين الحاكم و المحكوم، إذ يصدر المدير الشاب غير المتمرّس والقائد المحلّي أحكاماً في ضوء العادة وفي ضوء مصالحه الخاصة، و لكل منهما قوة من نوع ما، ولكنه يحترس من الاضطرار لاستخدامها، ويرتبطان ببعضهما من خلال اهتمام مشترك من شأنه أن يتآكل ويزول بسرعة مع مضي الزمن. وبالنظر إلى هذه المرحلة من حياته، بعد أربعين سنة، فقد كان يرى نفسه على أنه "الضيف الملحاح ثقيل الظل الذي جاء ليجلس نفسه عند عتبة الإسلام، ولكن كمعلّم". تمّ انتشاله من الغموض الذي يكتنف ذلك الموقع، ومن الرغبة الجامحة لبداية شبابه، من خلال " التدرّب المتحمس إلى جزء من الأرض وبداية لحوار مع تاريخه". وقد سار الحوار إلى نقطة أبعد عندما نُقل إلى فاس، وأمضى أمسياته وهو يدرس الفقه على يد أحد علماء المدينة، في ذلك النوع من التعاون بين رجلين من شاطئي المتوسط، وجهاً لوجه وتوحّدهما الرغبة في الفهم، الأمر الذي يشكّل نموذجاً لما كان يأمل هو حدوثه.

إلى حدٍّ ما، لم يتوقف الحوار؛ فقد قلّبه في عقله وقلبه. ويتحدث في كتاب "شبه الجزيرة العربية" عن نفسه على أنه جزائري من كلا الطرفين؛ فإذا كان أبوه ينتمي

إلى الصفوة من العاملين بالخدمة في الجيل الثاني، فإنّ عائلة والدته كانت تنتمي إلى الصغار البيض في الريف. وعلى ذلك الشاطئ الآخر من المتوسط، توجد جذور أسلافه في قرية من غابة اللاند Landes الفرنسية، الواقعة على الطريق الرئيس لحجاج أوروبا، ولكن أيضاً، عن طريق والدته في أسبانيا. يمكنه أن يزعم أنّه "فرنسي الجزائر الأخير" ولكن أيضاً "العربي اللاتيني الأول لمنطقة المتوسط".

وسواء أحدث ذلك الاندماج المتضمن في هذا الاسم أم لم يحدث، فإنّ هناك شيئاً منه قد تمّ إدراكه في حياته الخاصة. إنّه مقياس لعمق استجابة بعض العلماء الفرنسيين للإسلام، أي أنهم يستطيعون أن يزعموا أنهم قد ساعدوا العرب على فهم أنفسهم. ويستطيع المرء أن يقول عنه، كما قيل عن لويس ماسينيون، إنّ الفكرة التي يحملها المثقفون والمفكرون العرب عن التقليد الخاص بهم، وتقديمهم لأنفسهم، سوف تكون مختلفة وذلك بسبب ما كتبه وعلّمه. إنّه يكتب عن ماسينيون باحترام شديد، ولكن مع احتفاظه بمسافة معينة من بحثه عن تجارب روحية رفيعة وميوله لإعطاء الإسلام مظهراً مسيحيّاً. فالإسلام لديه هو "الآخر" الذي يجب أن يُفهم ويُقبل بذاته، وهي مهمّة كانت مناسبة لمرحلة تقاعد طويلة ومثمرة، قضاها في مقاطعة القدّيس جوليان ـ آن ـ بورن St Julien ñ en ñ Born على طريق سانتياغو دو كومبوستيلا Santiago de Compostela.